حـاول هـذا البحـث أن يـدرس جماليـات قصـيدة المـديح فـي شـعر الأعمـى التطيلـي ويسـتجلى قضاياها الموضوعية والفنية، وأسفرت الدراسـة عن جملـة مـن النتـائج التـي أمكـن استخلاصـها من فصول هذا البحث ولعل أهمها :

1- التحول الذي حدث بمجـيء المـرابطين؛ إذ عـرف هذا العهد تقلبـات وتحـولات جديدة، أدت إلـى التـدخل المرابطـي فـي الأنـدلس، ومـا صـاحب ذلـك مـن أحـداث سياسية واجتماعيـة جديـدة. سياسية؛ حيث انتقلت السلطة من الرمز الأندلسي إلـى البطولـة المرابطيـة، واجتماعيـة حيث برزت طبقة الفقهاء على حساب طبقة الشعراء، الذين تراجعت مكانتهم وانحط مركزهم

– خاصـة شـعراء المـديح – إذ ظهـرت أزمـة عـانى منهـا الشـاعر المـداح أكبـر معانـاة فـي هـذا العهد؛ حيث تعرض شعراء المديح للضياع والقلق، خاصـة تلك الطائفـة مـن الشـعراء الـذين كانت تجمعهم قصور ملوك الطوائف وتشتملهم، فلما فض الأمير المرابطـي يوسـف بـن تاشـفين مجلسـهم ذاك، تفرقـوا فـي الأرض شـاكين بـاكين، ملتجئين إلـى مـن بقـي بالأنـدلس مـن الأسـر العريقـة، وبعضـهم تنقل بين هذه المدينـة وتلك، وبعضـهم هـاجر إلـى المغـرب، خصوصـا بعد سقوط المعتمد بن عبّاد .

وهناك شعراء آخرون لم يشتمل عليهم بـلاط المعتمد إنمـا بـرزوا فـي العهـد المرابطـي فضـاقت بهـم سـبل العـيش، وانتـابهم إحسـاس بالضـياع والحيـرة وهـم لا يـدرون إلـى مـن سـيتوجهون بأمداحهم وكيف السبيل إلى إيصال تلك الأمداح إلـى الممدوحين، ومـن هؤلاء شـاعرنا الأعمـى التطيلي.

2- إن الشعر الذي تراجع في العهد المرابطي هو شعر المديح، وقد خلف ذلك أزمـة عميقـة فـي نفوس الشـعراء، إذ أن ميـزان الصـلات والعطايـا تقلـص فـي عهـد يوسـف بـن تاشـفين الـذي لـم يلتفت كثيرا إلى أصوات هؤلاء المداحين قدر استماعه إلى أصـوات الفقهـاء، فأصـبح التصـريح بكساد سوق الشعر أشد وأوضح من ذي قبل من طرف هؤلاء الشعراء .

3- المـديح أكثـر الأغـراض الشـعرية شـيوعا فـي ديـوان الأعمـى التطيلـي، فقـد عـاش متكسـبا بشعره، فلا غرو أن نجد أماديحه في شخصيات كثيرة ومتعددة إلا أنها كثرت في فقهاء وقضـاة وأعيان المجتمع الأندلسي، وقلت في حكـام وأمـراء المـرابطين، ولعل مـرد ذلـك إلـى أن هؤلاء الحكام كانوا من البربر لا يفقهون اللغة العربية كامل الفقه، وبالتالي لم يهتمـوا كثيـرا لا بالشـعر

ولا بالشعراء. وكان جلّ اهتمامهم منصبا في مجال الفتوحات والجهاد، فهم زاهدون متقشفون متمسكون بتعاليم دينهم ومبادئ دولتهم التي تقوم على الاهتمام بعلوم الدين وإصلاح الفساد وتطهير المجتمع من عوامل الشر، ونشر الفضائل الدينية .

4- إن مدائح التطيلي لم تكن تستهدف المثل الأعلى أو القيمة بقدر ما كانت تستهدف الشخص، فالممدوح كان له – دائما – بمثابة الملجأ والمأوى والأمان، يعينه على نكبات الدهر وصروفه، فقد ارتبط مديحه ارتباطا شديدا بعاهته والمتمثلة في فقدانه للبصر؛ إذ كانت تجربته حادة حالت بينه وبين الحياة الطبيعية، وأجبرته على نوع خاص من الحياة، وانتهاج مسلك التكسب والتزلف لممدوحه، فتغذى تكوينه النفسي من تبعات العاهة ونتائجها السلبية، وتشبع هذا التكوين بالألم المتولد من الفروق الهائلة بين الأعمى التطيلي وغيره من أفراد المجتمع، فالتطيلي حاول تجاوز محنته وصراعه مع الأقدار والكائدين من أهل زمانه، فكانت حياته كلها صورا من صراعه مع الدهر وإيلامه له، وجاءت قصائده المدحية للتعبير عنه وعن أزمته تلك؛ إذ دارت الكثير من المحاور الموضوعية لهذه القصائد حول معاني العجز واليأس، وافتقاد الآلة المادية المعينة على الحياة .

5- القصيدة المدحية عند الأعمى التطيلي تضج بالشكوى إلى حد الصراخ، وتلح على الطلب والعطاء إلى حدّ الاستجداء أحيانا، فلقد عزف على نغمات التذمر والشكوى من الغربة والضياع والحرمان، فنجد نص الشكوى يزاحم نص المديح، ويتداخل صوت الذات بصوت الغير (الممدوح) في شكل ومزج فريد، حتى لتكاد تتحول قصيدة المديح أحيانا إلى قصيدة شكوى، يتضخم فيها نص الذات وتطغى لغة الأنا على حساب لغة المديح .

6- اتسم المعجم الدلالي بالتنوع في قصائده المدحية، فهو لا يحافظ على مستوى واحد، ولا ينطبع بطابع واحد، أو يقطر من أنبوبة واحدة، أو يستخلص من أريج واحد، وإنما يتأثر بعوامل خارجية سياسية ودينية واجتماعية، إلى جانب المؤثرات الشخصية التي تضغط على الشاعر، فتحدده وفق أهوائها وأساليبها، فلقد عج معجمه بألفاظ الأخلاق التي هي عماد المجتمع الأندلسي آنذاك والتي حاول المرابطون تثبيتها وإرساء دعائمها عند الأندلسيين، كذلك ألفاظ الاستجداء التي طالما عبرت عن آلام التطيلي وعجزه وصراعه مع الحياة التي حرمته نعمة البصر والعيش الكريم، ومعجمه لا يخلو من ألفاظ دينية والتي لم تكن سوى صدى لنزعة

الحكام والساسة، تلك النزعة التي تركت بصماتها وآثارها في حياته، كذلك اهتم التطيلي بألفاظ الطبيعة متأرجحا بين عطر الزهور ونسائم الحقول .

7- استخدم التطيلي بحور الخليل المعروفة في قصائده المدحية، وتمركز استخدامه لها في تسعة بحور، فهو لم يخصص وزنا معينا لهذا الغرض، وأوزانه طويلة كثيرة المقاطع، تتسع تفعيلاتها للتعبير عن القيم الجليلة والغايات المترامية والتنفيس عن هموم النفس وأشجانها وذلك كله بهدف التأثير على المتلقي (الممدوح) وإثارة انفعاله لتجربة المديح المسوقة وكشفت الدراسة عن استعمال التطيلي لقافية تتسم بالوضوح السمعي وبغلبة الروي المجهور وبالإطلاق دون التقييد لاعتماد المدحة على الإنشاد، كذلك كشفت عن خصائص التكرار في قصيدة المديح سواء أكان ذلك على مستوى الأصوات أم الألفاظ أم العبارات، وتبيّن مدى عناية التطيلي بالجانب الصوتي لإثراء معجمه الإيقاعي واكتنازه من خلال التوسل بمصادر الإيقاع الثرية من تصريع وتصدير وجناس ...

8- لقد كان تأثر الصورة الفنية في قصيدة المديح بسياق تجربة المديح واضحا، حتى أصبحت ثمة صورة مثالية للممدوح تتجمع فيها كل صفات الكمال الإنساني المستمدة من الإطار القيمي العربي، وتتحدد الصورة عند الأعمى التطيلي من خلال الشكل التقليدي الذي اختاره إطارا لها، ويشمل كل من التشبيه والاستعارة كتشكيلات جمالية، وهذه التشكيلات جاءت ثرية في قصائده المدحية، ففي مجال الصورة التشبيهية كان الشاعر يستخدم التشبيه بدون أداة، بدرجة أقل من استخدامه له بأداة، كما استخدم التشبيه التمثيلي، الذي دلّ على سعة عطائه في رسم الصورة، إذ كانت تشبيهاته محكمة شديدة الإبداع، وقد نوّع الشاعر بين صوره الاستعارية فجاءت صوره جزئية حينا وفي لوحات كبرى حينا آخر، وقد توسل في تشكيلها بالتشخيص والتجسيم، والتجسيد .